

شعائر احتفالات الخطبة بتلمسان " حفلة الملاك نموذجاً "

بكوش نصيرة المولودة قشيووش
جامعة تلمسان (الجزائر)

Summary

Marriage is a universal system practiced by all mankind, since the ancient times and in all societies. This celebration happens in all cases by the party organization. From the point of view of form, they are patterns of behavior that tend to show its uniqueness. The celebration of Engagement Tlemcen incorporates rituals and symbols that influence individuals. They react emotionally with all these symbols. It reflects a very popular thought and philosophy of life required.

Keywords: Engagement, Tlemcen, rites

Résumé

Le mariage est un système universel, pratiqué par toute l'humanité et ce depuis les temps anciens et dans toutes les sociétés. Cette célébration passe, dans tous les cas par l'organisation de fête. Du point de vue de la forme, ce sont des modes de comportement qui tendent à montrer son caractère exceptionnel.

La célébration des fiançailles à Tlemcen intègre des rituels et les symboles qui influent sur les individus. Ils réagissent émotionnellement avec tous ces symboles. Elle traduit toute une pensée et philosophie populaire qu'exige la vie.

Mots-clés: Fiançailles, Tlemcen, rites

الملخص:

الزّواج نظام عالمي، عرفته البشرية منذ أقدم العصور، وفي كلّ المجتمعات، ومن عناصره عملية الإشهار. ويكون الإشهار عن طريق إقامة الاحتفال. والاحتفالات هي أنماط سلوكية شعبية، على المستوى الشكلي، تهدف بإبراز القيمة المعنوية الاستثنائية لعمل ما. والاحتفال بالخطبة في تلمسان يحمل في ثناياه شعائر وطقوسا ورموزا تؤثر في الأفراد فتجعلهم يتجاوبون عاطفياً مع ما تتضمنه من أفكار وما تُثيره من صور ذهنية فهي تترجم نمط تفكير وفلسفة شعبية وتدابير مادية ومعنوية من أجل مجابهة متطلبات الحياة.

الكلمات المفتاحية: الخطبة- تلمسان - الشعائر

مقدمة:

يتمّ الزواج في تلمسان على حسب خطوات معيّنة هي: الخطبة، عقد القران ثمّ الزفاف. وتصابح العادات الشعبية كلّ مرحلة من هذه المراحل. والمرحلة الأولى التي تكون كخطوة مبدئية لاقتحام هذا المشروع هي " الخطبة " والتي بدورها تنقسم إلى قسمين: القسم الأول وهو الفترة التمهيدية وهي تخصّ القواعد والشروط لعملية الاختيار والتي يفرضها المجتمع بصفة عامّة والأولياء بصفة خاصّة. والقسم الثاني وهو يخصّ المرحلة الرسمية وهي ترتبط بالتّحضيرات والتّجهيزات للاحتفال بالخطبة والتي تسمّى " بالملك ".

والسؤال المطروح هنا: ما هي شعائر وطقوس حفلة " الملك " في تلمسان، وإلى ماذا تشير أو إلى ماذا ترمز؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال لابدّ أولاً من تقديم بعض المفاهيم:

أولاً: تحديد المفاهيم:

أ) تعريف الخطبة:

الخطبة هي الفترة التي تسبق عقد الزواج بصفة رسمية وهي في الواقع المرحلة التحضيرية أو الإنشائية لتوثيق العلاقات بين أسرتي الزوج والزوجة ووضع أسس الحياة الزوجية.¹

وقد تكون فترة الخطبة قصيرة لا تتعدى بضعة أشهر وفي بعض الحالات تطول المدة إذا كانت الفتاة المخطوبة صغيرة السن، أو إذا كانت أسرة الخاطب ترغب في التريث، حتّى يتجمّع لديها مهر الفتاة، وما تتطلبه إجراءات الزواج من نفقات.²

ويعتبر فان جنب Van Gennep أنّ الفترة السابقة على الزواج والتي يسمّيها بفترة الخطبة هي فترة هامشية انتقالية تمهيدية ويسود الاعتقاد لدى العديد من الشعوب بأنّ تلك الفترة جزء مستقل عن طقوس الزواج، وهي تتضمن في طياتها شعائر الانفصال والهامشية والاندماج، وهو يرى أنّ بعض أعضاء المجتمع يتأثرون بهذه الرابطة خاصّة عائلتا الطرفين لذلك يجب أن تولّى هذه المرحلة القدر الكاف من الاهتمام.³

ب) تعريف الشعائر:

هي التعبير والتأكيد الرمزي للقيم، وهي نمط من الأفعال المحددة المصاحبة للأنساق الثقافية كالعادات والتقاليد والمعتقدات، وهي التعبير عن الأشكال الثقافية المتكررة السائدة في المجتمع.⁴

ولقد ميّز علماء الأنثروبولوجيا بين هذه الشعائر منها شعائر العبور أو الانتقال وهذا النوع من الشعائر ينفذ إلى المشكلات الحياتية لأفراد المجتمع، والنوع الآخر هو شعائر التعزيد أو التقوية وهذا النوع يحدث خلال الأزمات المجتمعية فبعمل على توحيد أفراد المجتمع معاً.⁵

وشعائر الخطبة يسمّيها فان جنب " بشعائر المرور أو العبور أو الانتقال. فالتحوّل والانتقال من جماعة لأخرى ومن مرحلة عمرية إلى مرحلة عمرية أخرى (كانتقال الفرد من مرحلة العزوبية إلى مرحلة الزواج) تتطلب القيام ببعض الطقوس والشعائر، والتي تهدف إلى مساعدة الأفراد على عملية الانتقال.

¹ - مرفت العشماوي، عثمان العشماوي، دورة الحياة، دراسة للعادات والتقاليد الشعبية، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع الإسكندرية، جمهورية مصر العربية، 2011- ص 165.

² - فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1980- ص 253.

³ - مرفت العشماوي، نقلاً عن

Arnold Van Gennep. The Rites of passage. Translated by monikab. Vize doomand Gabriel caffe , Routledge and Kegan paul, London , 1977 p 116-117.

⁴ - مرفت العشماوي، المرجع السابق، ص 28.

⁵ - مرفت العشماوي نقلاً عن William A..Haviland , 1974, Anthopo logg, Holt Rinchant and Winston , Inc, USA, P 505.

(ج) تعريف حفلة " الملاك "

هي وليمة عقد النكاح ويقال لها: وليمة الملاك بكسر الميم، وهو لغة في الإملاك بكسر الهمزة.
قال ابن الجوزي في تقويم اللسان: العامة تقول كنا في ملك فلان والصواب إملاك.¹
ويكون يوم الملاك عادة يوم الخميس وذلك لأنه يوم عطلة يجتمع فيه الأهل والأحباب، القريب والبعيد.

ثانيا: شعائر الاحتفال بحفلة " الملاك ":

تعكس مظاهر الاحتفال " بالملاك " الكثير من مظاهر الاندماج والارتباط والتضامن الذي أسماه دوركهائم بالتضامن الآلي. ويرتبط بالخطبة رمزان يتمتعان بثرات تاريخي طويل الأول خاص بطريقة الإعلان عن الخطبة والثاني هو خاتم الخطبة.

(أ) طريقة الإعلان عن الخطبة:

يكون الإعلان عن الخطبة عن طريق إقامة احتفال ويهدف هذا الاحتفال إلى تقديم العضو الجديد وعائلته إلى العائلة الأخرى، كما أنه يعمل على إذكاء شعور الفتاة بأنها أوشكت على أن تصبح فتاة ناضجة تماماً ويعمل أيضاً على تنبيه الوالدين إلى أن الأبناء على وشك الانفصال عنهم.²

والطقوس والشعائر والعادات المرتبطة بالخطبة تتراوح ما بين احتفال بسيط يتم عن طريق إقامة مأدبة إلى أن يصل في بعض الأحيان لدرجة مشاركة جميع الأهل والأقارب حيث يتم الاحتفال لآخر فترة من الليل.

ولو نظرنا إلى مظاهر الاحتفال بالخطبة في المجتمع التلمساني نجده يتم في منزل العروس. وفي عشية هذا اليوم (يوم الملاك) يذهب أهل الخطيب إلى بيت الخطيبة في موكب بهيج، حاملين معهم هدايا كثيرة منها " الطيفور "3 الذي يُمَلأ بالحناء لتخضب بها العروس. وحرصهم على هذه المادة يدل على ما لها من مكانة مقدسة في مناسبة الزواج. كما يجعلون وسط الطيفور قالباً من السكر فهو في اعتقادهم رمز للحلاوة والسكينة والمودة.

ثم يؤتي كذلك بأطباق تملأ بأنواع من الحلويات التقليدية " كالمقروط "، " القريوش "، " وبحلاوة " وغيرها...و تصنف أطباق أخرى بالثمار كاللوز و الكاكو والتمر والبيض، إضافة إلى الشموع والحليب.

كما يرسل الخطيب لخطيبته " القفطان " وهو جزء هام من المهر، وبلوزة المنسوج، و "الحايك"، و"الصباط" مع مجموعة من مساحيق التجميل والعطور والصابون

وعندما يصل موكب السيارات ينزل أهل الخطيب، وتزغرد النساء ويستقبلن أهل الخطيبة بالزغاريد أيضاً.

في وسط الدار، تكون الخطيبة في أبهى حلة، وأجمل صورة، وتكون عادة لابسة "الرّدا"4 وهو يعتبر اللباس الأساسي الذي يجب على الخطيبة أن ترتديه يوم " الملاك " مع تسريحه شعر خاصة.

وفي المساء يأتي الخطيب وأصدقائه إلى بيت الخطيبة، وبعد تناول مالدّ وطاب من الأطعمة والأشربة يقضون الليلة في لهو وغناء ورقص.

وقد جرت التقاليد في تلمسان في ليلة الإملاك أن يشرب الخطيب خطيبته كأساً من الحليب، وفي المقابل تقدّم له هي الأخرى نفس الكأس ليشرب هو منه أيضاً.

¹ - شمس البين محمد بن علي بن طويون الدمشقي الصالح 880-952هـ/1475-1546، فص الخواتم فيما قيل في الولاتم تحقيق نزار أباضة، دار الفكر بدمشق، ط1، 1403هـ/1983م ص95.

² - مرفت العشماوي، عثمان العشماوي، مرجع السابق، ص 181.

³ - الطيفور: سينية كبيرة

⁴ - يعتبر هذا اللباس من الألبسة القديمة جداً، بحيث أنه برز في العصر الجاهلي، استعمله العرب الجاهلين، وأخذ أشكالاً مختلفة، والرّدا المستعمل في تلمسان عبارة عن ملحفة تشبه كثيرا اللباس الشاوي انظر فاطمة الزهراء صوفي ، اللباس التقليدي للعروس في الجزائر، دراسة وصفية فنية، رسالة لنيل شهادة الماجستير، مكتبة النفاة الشعبية تلمسان، 2000، 2001، ص 56.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا يشربون الحليب في هذه المناسبة، وما هي رموز ودلالات الحليب " اللّبن " بصفة عامّة؟

للحليب مكانة مقدّسة في الكتاب والسنة إذ قال تعالى: " وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين " النحل: 66.

وفي السنن مرفوعاً " من أطعمه الله طعاماً، فليقلّ اللهمّ، بارك لنا فيه، وزدنا منه فاني لا أعلم ما يجزي من الطعام والشراب إلّا " اللّبن " 1

والحقيقة أنّ مصدر هذه العادة (شرب الخطيبان الحليب) السنة النبوية الشريفة حدّثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب بن حوشب أنّ أسماء بنت يزيد بن السكن إحدى نساء بني عبد الأشهر قالت: إنّني قينت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ جئته فدعوته لجلوتها فجاء فجلس إلى جنبها فأتي بعسّ لبن فشرب ثمّ ناولها النبيّ صلى الله عليه وسلم فخففت رأسها، واستحيّت فقالت أسماء فأنتهرتها، وقلت لها " خذي من يد النبيّ صلى الله عليه وسلم، قالت فأخذت فشربت شيئاً ثمّ قال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم: أعطي تربك... 2

نفهم ممّا سبق أنّ هذه العادة إسلامية محضة وليست غربية ولا دخيلة، وإنّ مبادرة تبادل الخطيبين شرب الحليب من كأس واحدة دليل على أنّهما سيشاركان في حياة واحدة، ويقتسمان حلوها ومُرمّها، أي أنّهما سيصبحان نفساً واحدة، لقوله تعالى: [هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها...] سورة الأعراف: 181

أمّا بالنسبة لرموز ودلالات الحليب، فإذا رجعنا إلى الموروث الشعبي نجد أنّه " كان رمزاً للقُداسة والقوّة، فهناك نصوص ورسوم توضّح الملك، وهو يرضع من الآلهة، فعلى سبيل المثال نجد إيزيس التي تستقبل الطّقس الرّمزي تُشارك الحاكم في القوى المقدّسة، كما تُصوّر الرّسوم الأخرى الملك وهو يشرب اللّبن من ضرع البقرة السماوية... وغالباً ما كان يوضع وعاء إن من اللّبن في المعابد باعتباره قرباناً". 3

كما يرمز اللّبن إلى الطّهارة بسبب بياض لونه، وعلى ذلك فإنّه غالباً ما يفسر تقديم اللّبن على هيئة قربان باعتباره طقساً للتطهير. 4

نفهم ممّا سبق أنّ هذه العادة (شرب العرسان الحليب) قد تكون أيضاً من بقايا ورسوبات العادات القديمة، فالحليب في اعتقادها رمز للطّهارة والنّقاء والصّفاء، لذلك وجب استعماله في مثل هذه المناسبات.

ومن طقوس هذا الاحتفال أيضاً في تلمسان أن يتبادل الخطيبان أكل التمر، فالتمر حلو، والحلاوة رمز للسّعادة والهناء، كما إنّ استعمال التمر في هذه المناسبة يعود أيضاً لكونه رمز للصّحة والعافية " فهو يحتوي على نوعين من الأحماض الأمينية الأساسية التي لا يستطيع جسم الإنسان صنعها وهي ضرورية لاحتياجاته الفسيولوجية. كما يعتبر من الثّمار الغنيّة بالفيتامينات" 5

كما تظهر مكانة التمر وقد سيّته واضحتين في القرآن والسنة. قال تعالى: " وهُزّي إليك بجذع النّخلة تساقط عليك رُطباً جنياً" مريم: 25.

وثبت في الصّحيح عنه صلى الله عليه وسلم: " من تصبّح بسبع ثمرات، لم يضره ذلك اليوم سمّ ولا سحر".

¹ - ابن قيم الجوزية، شمس الدّين أبو عبد الله الطّيب النّبوي تحقيق عبد المعطى أمين قلعي دار الأقصى القاهرة ط15، 1990، ص 509.

² - للتوسّع انظر الطّيب بن هاشم، العادات والتّقاليد في ولاية تلمسان وعلاقتها بالشرعية الإسلامية رسالة لنيل شهادة الماجستير، مكتبة الثقافة الشعبية 2001-2002 ص 26.

³ - مانفرد لوركر، معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، تر صلاح الدّين رمضان مراجعة الدكتور محمد ماهر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2000، ص 209.

⁴ - المرجع نفسه، ص 209.

⁵ - للتوسّع أنظر مليكة بمنصور - الطّيب الشعبي النّبائي بالغرب الشمالي، دراسة ميدانية، رسالة دكتوراه، مكتبة الثقافة الشعبية- 2003-2004، ص 169.

(ب) خاتم الخطبة

في ختام هذا الحفل، يقوم الخطيب- أو من ينوب عنه- بوضع خاتم الخطوبة في بنصر اليد اليسرى للخطيبة، وأثناء ذلك يقبل الخطيب خطيبته وتطلق الزغاريد، ثم تُقدّم التّهاني للمخطوبين ولكن قد يجدر بنا أن نتساءل، متى بدأت عادة تقديم خاتم الخطوبة؟ ومن هو أول من وضع هذه العادة؟ ولماذا يضعون خاتم الخطوبة في بنصر اليد اليسرى؟ استخدم الناس- ذكورا وإناثا- خواتم الأصابع منذ أقدم العصور، وفي جميع بلدان العالم¹ وأول ما عرفت خاتم الخطوبة أو الزواج في عهد الرومان. فقد كان من تقاليدهم أن يُقدّم الشاب إلى خطيبته خاتماً من حديد، على سنّ سيف ثم تطوّرت هذه العادة، واستبدل بها الخطيبان قطعة ذهبية أو فضية، يحتفظ كلّ منهما بجزء منها، بعد أن يشربا مع المدعوين "نخباً" في وليمة تُقام لهذا الغرض².

أما الذبلة الذهبية أو الخاتم الذهبي فلم يعرف إلا في عهد متأخّر عن العهد الروماني بكثير، ومع ذلك ظلّ بعض الناس يحرصون على تقديم خاتم من حديد كما كان الرومان يفعلون³.

"والمصريون القدماء، هم أول من استعمل الذهب في صنع الخواتم، التي تقدّم عادة في مناسبات الزواج"⁴. لقد اتخذ الخاتم أشكالاً عدّة: منها السّاذج الذي صنع على شكل حلقة من العين، أو من الحشائش المجذولة، ومنها الأنواع المعقّدة، التي اتخذت أشكال رؤوس الحيوان، أو صورة إنسية، ومنها ما ثبت فيها الأحجار الكريمة كالماس أو الياقوت، أو الزّمرّد وغيرها⁵.

كما تنوّعت النقوش وظهر فنّ نقش اسم الخطيب أو الخطيبة على الخاتم، فكان الصّانغ يتفنّن في رسم تلك الأسماء على خواتم الزواج وخواتم الخطوبة.

"ويعود هذا النقش إلى العصر العباسي، حيث جرت العادة أن تزيّن فصوص الخواتم بالنقوش، فمما نقشته جارية على خاتمها "جعفر بن يحيى"، كما نقشت جارية المأمون على خاتمها "حسني"⁶ أما بالنسبة لرموز الخاتم:

- فمنذ أقدم العصور والناس يلبسون الخواتم للتحليّ والزينة. كما أنّها تُستخدم رمزاً للخطوبة، وعلامة للنّفوذ والسلطان⁷.
- كما تستعمل في مناسبة الخطوبة والزّفاف كونها رمزاً للديمومة والاستمرارية. "وترجع رمزية الخاتم في استداراته، لأنّه بلا بداية أو نهاية، لذلك يعتبر رمزاً للأبدية"⁸.

إنّ إبرام عقد الخطبة بالخاتم أو برمز آخر هو شيء يستخدم منذ زمن بعيد، ومن المحتمل أنّه قد جاء من عادة قديمة وهي استخدام الخاتم كتعهد في أيّ اتفاق هامّ أو مقدس. وفي سفر التكوين نجد فرعون يقول ليوسف "أنظر قد جعلتك على كلّ أرض مصر، وخلع فرعون خاتمته من يده وجعله في يد يوسف"⁹.

¹- سهيل قاشا، الحلي في وادي الرافدين، مجلة التراث الشعبي، العدد الثّالث، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، السنة التاسعة، 1978 ص 138.

²- أحمد إبراهيم السعيد، دبلّة الخطوبة وخاتم الزواج مجلة العربي، العدد 87، الكويت، 1966- ص 141.

³- المرجع نفسه، ص 141.

⁴- المرجع نفسه، ص 141.

⁵- سهيل قاشا، المرجع السابق، ص 138.

⁶- المرجع نفسه، ص 138.

⁷- المرجع نفسه ص 138.

⁸- ما نفرد لوركر، المرجع السابق، ص 125.

⁹- مرفت العشماوي، المرجع السابق، ص 184.

وخلاصة القول: إنّ استعمال الخاتم في الخطوبة والزّواج أمر جرى عليه العرف والشرع " فالتمس ولو خاتم من حديد ". وهو عنوان على الرّغبة والجدية في الزّواج وتقديم خطوة أولى للشرع في الزّواج وتحمل المسؤولية، وحجز الفتاة حتّى لا يتقدّم آخرون لخطبتها.

أمّا لماذا توضع خاتم الخطوبة في بنصر اليد اليسرى فهناك عدّة تفسيرات قدّمها الباحثون من بينها:

1- هي عادة مترسبة قديمة، عندما كان العريس يضع الخاتم على إبهام العروس اليسرى، ويقول: باسم الأب ثم ينقله واضعاً له على رأس السبابة: ويقول باسم الابن فعلى رأس الوسطى ويقول: باسم روح القدس وأخيراً يضعه في البنصر - حيث يستقرّ - ويقول: آمين.¹

2- وهناك أسطورة قديمة تقول إنّ هناك عصباً بين بنصر هذه اليد والقلب²

3- كما قد ارتبط أيضاً كلّ من اليمين واليسار بالأمور الجنسية كتعبير عن نظام قطبي العالم: فكان الجانب الأيسر طبيّاً بالنسبة للنساء.³

كانت تلك تفسيرات وتعليقات لعادة وضع الخاتم في بنصر اليد اليسرى، قدّمها الباحثون لكنها كانت كلّها تستند على معتقدات من نسج الخيال.

وكخلاصة لكلّ ما سبق، نقول إنّ إقامة حفل الإملاك له أهمية كبرى تتمثل في:

- إعلان المجتمع عن وشك اقتران اثنين برباط الزوجية
- إعطاء فرصة للخطيبين كي يتعرّف كلّ منهما على الآخر في حضور الأهل والأحباب.
- تقوية الروابط الاجتماعية بين الأسرتين المتصاهرتين مع الاشتراك في ممارسة الشعائر وهذا يعني الاشتراك في قيم المجتمع والاشتراك في تراث الأجيال.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- مرفت العشماوي، عثمان العشماوي، دورة الحياة، دراسة للعادات والتقاليد الشعبية، دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر.
- فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1980.
- شمس الدّين محمّد بن عليّ بن طولون الدّمشقي الصّالحي 880-952هـ (1475-1546) فصّ الخواتم فيما قيل في الولايم تحقيق نزار أباضة، دار الفكر بدمشق، ط1/1403هـ/1983م.
- فاطمة الزهراء صوفي، اللباس التقليدي للعروس في الجزائر دراسة وصفية فنية، رسالة لنيل شهادة الماجستير، مكتبة الثقافة الشعبية، تلمسان، 2000-2001م.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدّين أبو عبد الله، الطب النبوي، تحقيق عبد المعطى أمين قلجي دار الأقصى القاهرة ط15، 1990.
- الطيّب بن هاشم، العادات والتقاليد في ولاية تلمسان وعلاقتها بالشرعية الإسلامية، رسالة لنيل شهادة الماجستير، مكتبة الثقافة الشعبية، 2001-2002.
- مانفرد لوركر، معجم المعبودات والرّموز في مصر القديمة، تر صلاح الدّين رمضان مراجعة الدّكتور محمّد ماهر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2000.
- مليكة بلمنصور، الطبّ الشعبي النّبائي بالغرب الجزائري- رسالة دكتوراه، مكتبة الثقافة الشعبية تلمسان 2003-2004.
- محمّد ناصر الدّين الألباني، آداب الزفاف، المكتب الإسلامي بيروت، 1989.
- مجلة التراث الشعبي، العدد الثالث، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، السنة التاسعة، 1978.
- مجلة العربي، العدد 87، الكويت، 1966.

¹- محمد ناصر الدين الألباني، آداب الزفاف، المكتب الإسلامي، بيروت ، 1989، ص 141.

²- مجلة العربي، العدد السابق، ص 141.

³- مانفرد لوركر، المرجع السابق، ص 151.